قضايا

مر إقليم الأهواز منذ سيطرة إيران عليه بتحولات عديدة، فقد مورست ضده كل أشكال التعسف، حتى صارت الاحتجاجات سمة أساسية له تشتعل بين حين وآخر بلا مساعدة أو دعم، بعدما خذلته الثورة الإسلامية

نحو مزيد من الثورات
مشكلات الأهواز منذ 1925 ومستقبل إيران [2/1]

عمّار ديّوب

في عام 1925 أسَرَ شاه بلاد فارس حينها، رضا خان، آخر أمراء إمارة عربستان، خزعل الكعبي. حدث ذلك حينما تخلّت بريطانيا عن خزعل، وتحالفت مع الشاه لمواجهة روسيا التي اقتطعت مناطق واسعة من أذربيجان، وكانت تطمح للسيطرة على إيران، للوصول إلى الخليج العربي؛ فأُسر، ووضع تحت الإقامة الجبرية، وقُتل في 1937.

لعنة النفط وتاريخ عربستان

كانت لعنة اكتشاف النفط وبداية استخراجه من مدينة مسجد سليمان 1908، وإنشاء أكبر مصفاة للنفط في عبادان عام 1913، المدخل لإنهاء الإمارة، وتعظيم شأن إيران، وتوكيلها شرطي المنطقة. منذ ذاك التاريخ، تعرّض إقليم عربستان، أو ما سمته لاحقاً حكومة الشاه خوزستان، لعملية تفريس، وتغيير ديمغرافيته، وفي ذلك، قضى الإقليم قرناً كاملاً، من التغيير لهويته التاريخية. مورست ضده كل أشكال التعسّف، وليس تغيير مسارات أنهاره، وتصحير بيئته الطبيعية، وتجفيف مستنقعاته فحسب، إذ جُلب عشرات الآلاف من غير العرب إليه، ويُسمّي الأهوازيون مناطق هؤلاء المستوطنات، أي المحتلين. قضية حرمان الإقليم من الماء، أخيرا، هي الشرارة في الانتفاضة الجديدة التي بدأت في 15 الشهر الماضي (يوليو/ تموز)؛ بينما القضية الأساسية تتعلق بنتائج سياسات ممنهجة مضادّة للعرب، وليست مقتصرة على نظام ما بعد 1979 بل منذ قرن، وقبله كانت الأهواز، أو الأحواز، دولة موحدة منذ 637 وإلى 1925. زاد من تمايز الأهواز، مع بداية القرن السادس عشر، تَشكّل إمارة المشعشعية، وانتقل الحكم في القرن الثامن عشر إلى أسرة الكعبي من بعدها.

قبل سيطرة نظام رضا شاه، ظلّت عربستان مستقلة، وتأسّست فيها دول كثيرة، وكان معترفا بها من الدولتين، العثمانية والصفوية، ويمتد تاريخها إلى ما قبل الإسلام، ومنذ أن تراجعت مياه شط العرب، فتدفقت نحوها هجراتٌ عربية من محيطها العربي، العراق والخليج، وهي امتدادٌ بشريٌّ وطبيعي لهما. كما «سايكس بيكو» البريطاني الفرنسي قَسّمَ البلاد العربية، كذلك فعلت بريطانيا بإقليم عربستان، وأجهزت عليه عبر تحالفها مع دولة الشاه في مواجهة الدولة الاشتراكية السوفييتية حينها.

ثروات الإقليم

هناك معلومات تخصّ هذا الإقليم، وأهميته لإيران تكمن هنا، إذ تستخرج الآخيرة أكثر من 75% من النفط والغاز منه، وفيه أكبر ثروة مائية، غير متوفرة في بقية الأقاليم، إذ يشمل خمسة أنهر، وأهمها كارون، وهناك الكراخة والدز والجراحي، وسواها، وأدّى سوء استثمار العاصمة في مياه الأنهر إلى الجفاف الكامل لكل من الكرخة والجراحي، وتصحّرت أراض كثيرة في الأهواز، واختفت مئات الأنواع من الطيور النادرة، وتلاشت مزارع البلح والأرز، وشهد الإقليم هجرةً واسعةً من عربه إلى مدن الداخل، والعيش بأسوأ أشكال الحياة. وتعدّ مدن الأهواز من أكثر المدن تلوثاً في العالم، بسبب مصافي النفط والمعامل الكيماوية التي لا يتم توظيف العرب فيها بأكثر 5%، وفقاً لتصريح ممثل المرشد الأعلى في الأحواز محسن حيدري، مع أن تلك المنشآت في أرضهم التاريخية. عدد سكان الإقليم يقترب من ثمانية ملايين، وهناك من يتحدث عن ستة ملايين عربي، وفيها قوميات أخرى، ولكن بأعداد قليلة. الأهواز، إذاً إقليم عربي، طبيعياً وبشرياً، ولكنه لم يجد دعماً عربياً للمحافظة على استقلاله، فقد كان العرب يُقسّمون وفق سايكس بيكو، وزُرعت في أراضيهم الصهيونية، وكذلك تم اقتطاع مناطق واسعة من سورية وألحقت بتركيا، وهناك أقاليم وجزر كثيرة ألحقت بدول غير عربية.

هيمنة الفرس على الإقليم

خضع إقليم عربستان تحت الحكم البهلوي، لهيمنة العنصر الفارسي، وصودرت أملاك الأمير خزعل وآخرين، وتمّ تهميش الطبقات العليا في الإقليم، وحلّ مكانها فُرس، وبالتالي مُنع التطور الطبيعي للإقليم. وهنا لا يفوتنا أن الأمير خزعل كان ضيق الأفق، فلم يهتم بالتعليم، وإرسال الطلاب إلى أوروبا، وكذلك لم تكن علاقته جيدة مع قبائل عربية تسكن الإقليم! فتح الشاه باب الهجرة العمالية وغير العمالية، والعادية والمخطّط لها، وبهدف تغيير البنية الديمغرافية، وإبعاد الأكثرية العربية عن تبوؤ المناصب الأساسية في عربستان. الحكم البهلوي والحكم الإسلامي اعتمدا سياسة تغيير أسماء المدن والبلدات والأنهر والرموز، وحتى الزي الشعبي تمّ منعه، والأسوأ تمّ ما بعد الإسلامي، حيث بنت الدولة مئات السدود على الأنهر، وحوّلت مياهها إلى المدن الفارسية. يضاف إلى ذلك كله أن الحكم البهلوي منع التعليم باللغة العربية منعاً باتاً، وهذا لعب دوراً كبيراً في تغييب الوعي الحديث، وانتشار الأمية، ومنع الأفراد من تحصيل خبراتٍ علمية، هي ضرورة لكل مجالات الحياة، ومنعته من تشكل الوعي السياسي الحديث. ونتيجة ذلك، ظلّت البنية القبلية قويّة في الإقليم. على الرغم من ذلك، تشكلت قوى سياسية قومية في الخمسينيات، وراحت ترفع شعاراتٍ تتعلق بعروبة الإقليم، وتزامن ذلك مع المد القومي العربي، بدءاً من مصر وصولاً إلى العراق، وسورية، ودفع ذلك الحكم الإيراني إلى مزيدٍ من القمع والعسف ضد الإقليم، ومتابعة تغيير ديمغرافيته، وبمختلف الأشكال.

خذلان الثورة الإسلامية الإقليم

وقف إقليم الأهواز مع الثورة الإسلامية، وأوقفت مظاهراته الإنتاج النفطي فيه، على أمل أن قادة الثورة سيعطون الإقليم حكماً ذاتياً، أو سيتم الاعتراف بحقوق سكانه التاريخية، وستتم إزاحة كل أشكال المظالم السابقة. لم يكن نصيب الإقليم من الإنصاف إلا كحال بقية القوى التي تحالفت مع الإسلاميين، أي الاعتقال والإعدام، والطرد خارج البلاد، سعياً إلى تأسيس جمهورية إسلامية خالصة، تدين بالولاء الكامل لولاية الفقيه، وتعتمد بصورة أساسية على القومية الفارسية، وتهميش بقية القوميات. السيئ في ذلك كله أن الفرس ليسوا القومية العظمى وحدها، وهناك قومياتٌ كثيرة، كالأذرية والكردية والعربية والبلوش واللور والتركمانية. ويشار عادة إلى أن إيران بلد القوميات المتعدّدة. الأمر الآخير، إضافة إلى سوء الإدارات وفي مناحي الحياة كافة،

> قبل سيطرة نظام رضا شاه، ظلّت عربستان مستقلة، وتأسّست فيها دول كثيرة

> وقف الإقليم مع الثورة الإسلامية، وأوقفت مظاهراته الإنتاج النفطي فيه، على أمل أن قادة الثورة سيعطونه حكماً ذاتياً

والعقوبات الدولية، أدّى إلى تدهور كامل في إيران، ولم تتوقف المظاهرات طيلة عمر هذه الجمهورية الإسلامية، ويشار هنا إلى المظاهرات الطلابية الضخمة في 1999، والتي اشتدّت بشكل كبير بعد عام 2017.

يرى محللون أهواز أن التضامن مع انتفاضة شعبهم أخيرا كان كبيراً، ومن قوميات لم تتضامن مع الثورة الخضراء 2009، وتظاهرات 2019، والمقصود هنا الأذرية، وهذا يعني أن مشكلات إيران لم تعد تتعلق بالجانب الاقتصادي، بل تعدّته إلى المطالبة بحق تقرير المصير للقوميات، أو تغيير كامل في النظام السياسي، إلى جانب شعارات مطلبية، وهذا يتعارض مع وصول إبراهيم رئيسي أخيرا إلى رئاسة بلاده. وبالتالي، ستشهد إيران مزيداً من الاحتجاجات مستقبلاً، وستكون أكثر ضراوة. الفكرة الأخيرة تتعلق باستلام ولي الفقيه وممثل الحرس الثوري، رئيسي، الحكم، وتهميش الإصلاحيين والمعتدلين، وشعور القوميات من غير الفرس بالتهميش، وشعور قطاعات واسعة من الفرس بالتهميش لمصلحة سيادة مطلقة للحرس الثوري. لاحظ هنا الانتقادات الشديدة التي وجهها كل من الرئيسين السابقين، أحمدي نجاد ومحمد خاتمي، إلى النظام في مأساة الأهواز.

لقد ناصر أهالي الإقليم الثورة الإسلامية، ولكن الأخيرة، وإن أعطت أهالي الإقليم بعض الحقوق، وتتعلق بالتمثيل بالنقابات والحريات الفردية، ولكنها قمعت بشكل كبير أي تطلعات سياسية. قمعت المطالبة بحكم ذاتي بعد الثورة بشدة، وارتكب حاكم الإقليم حينها، الجنرال أحمد مدني، مجزرة راح ضحيتها أكثر من 817 شهيدا، وما يقارب 1500 جريح، وآلاف المعتقلين. تَفجّرَ الاحتقان المجتمعي في 2005، إثر رسالة سُرّبت من محمد أبطحي، مستشار الرئيس خاتمي، وإن نفاها هذا الرجل، وتحدّث فيها عن تدابير من شأنها تقليص نسبة العرب في الأهواز، من خلال خطة لتعديل التركيبة السكانية ونقل العرب إلى شمال إيران!

وقد اندلعت في 2011 الاحتجاجات بتأثير من الربيع العربي، ولكنها لم تُغطَّ إعلامياً، وتمكن النظام من قمع الأولى والثانية. ويتخوف النظام في طهران من أهالي الإقليم، إذ ينتمون فعلياً إلى العالم العربي، ولهذا مارس السياسات العنصرية ضد الإقليم، ولم يميّز بين شيعة وسنة من أهله. وقد طاول التهميش أوجه الحياة كافة، وزاد الأمر سوءاً أن آثار الحرب العراقية الإيرانية بين 1980 و1989 لم يتم احتواؤها، فظلّت أكثر من 400 قرية مدمرة، ولم تُفكك مخلفات الحرب من قنابل وألغام وسواهما، والتي ما زالت تنفجر بالأهالي، ولم يُعَد إعمار البنية التحتية. كان أي إعمار يتمّ في قرى وبلدات عربستان يتمّ من الأهالي، أي لم توضع أية خطة للإنماء، وبالتالي شعر العرب هنا بالغبن الشديد. ويشار في ذلك إلى أن أكثرية الإقليم من الشيعة، وقد هجر قسم منهم في التسعينيات خصوصا، ذلك المذهب نحو المذهب السني، وذلك بسبب السياسات العنصرية ضدهم من طهران، وكونهم شيعة لم يشفع لهم عند نظام ولي الفقيه الشيعي، وهذا ما يوضح الطبيعة العنصرية للقمع، والإشكال الوطني الكبير في إيران، حيث التفريس لا يمكن أن يشكل هويةً وطنيةً، وبالتأكيد ليس هوية قومية، وبالتالي ما زالت المسألة القومية مطروحة بقوة على طاولة النظام هناك.

الاحتجاجات في الإقليم وفي إيران

التهميش والإفقار والإذلال والتجهيل، وحرمان أهالي إقليم عربستان من ثرواته، ورفض توظيف عمالته في قطاعات النفط ومزارع قصب السكر ومصانع الكيميائيات، وغيرها، فهمها جيداً الأهالي، ولهذا شاركوا بمختلف أشكال الاحتجاج التي اندلعت في أقاليم إيران، وصولاً إلى الاحتجاجات أخيرا، والتي ليست مقطوعة الصلة عن سابقاتها، وهي استمرار لاحتجاجات سابقة رفضت تحويل مسار الأنهر، وتصحير أراضيهم، والمطالبة بحقوقهم الثقافية والاقتصادية والسياسية. الجديد هو التضامن العام في مختلف قوميات إيران. كذلك الإفراج الفوري من نظام إيران عن المعتقلين، وكثرة التصريحات الحكومية، والتي حملت نفسها مسؤولة تهميش أهالي الإقليم، ولكنها لم تتطرّق لسوء الإدارة في الشؤون المائية والاقتصادية والسياسية والقومية. الإقليم هو من أهم أقاليم إيران لناحية الثروات النفطية والمائية. وبالطبع، يتم إنتاج كمية كبيرة من الكهرباء عن طريق السدود التي بنتها الحكومية، وكان تأثيرها كارثياً على الأهالي، سيما عبر تحويل مياه الأنهار أو في أثناء فترة الفيضانات، حيث تُغمر الأراضي والقرى بالمياه. وبالتالي، صار الإقليم يعاني من شحّ المياه، ودمرت زراعته وحيواناته. ومن ناحية أخرى لا يتم توظيفهم في المعامل المقامة على أرضه، والمتعلقة بالطاقة والتصدير. وفوق هذا وذاك، يتم بناء مستوطنات من قوميات أخرى.

منذ 2017، هناك مشكلات كبرى تواجهها إيران، وتبدأ بانهيار مستوى المعيشة، وانقطاع الكهرباء ومشكلة المياه والبطالة العالية، وهناك الجفاف، والعقوبات الخارجية، والاحتجاجات العمالية والطلابية، والسياسية، وتعاني من هذه المشكلات فئات واسعة ومن مختلف القوميات، وعدا ذلك كله، هناك انتشار وباء كورونا، والعدد الكبير من الوفيات من جرّاء سوء إدارة القطاع الصحي. كان أسوأ خيار لنظام ولي الفقيه، وهو يعاني من كل هذه الأزمات اختيار إبراهيم رئيسي، الرئيس المتهم بإنزال عقوبة الإعدام بآلاف المعتقلين السياسيين في 1988. إيران بحاجة إلى إصلاح جذري، لتتوقف المظاهرات، وما يتجه إليه نظام الحكم، يقول العكس تماماً.

تتركز الأزمات التي تتزايد في إيران، بشكل خاص، لدى الكرد والعرب والأذريين، وسواهم، وهناك الرفض الشعبي الإيراني الواسع لفكرة الاستمرار بنظام ولي الفقيه والحرس الثوري. هنا نضيف أنه إذا استمرّت العقوبات، ولم تستطع الحكومة إنجاز الاتفاق النووي، والإفراج عن مليارات الدولارات، فإن إيران متجهة نحو مزيد من الثورات. كذلك رفض النظام مناقشة مسألة الصواريخ والوجود الإقليمي، وعمل على استعداء العرب، والغرب أخيرا، ولا سيما مع مشكلة الاستيلاء على السفن. وبالتالي، سيجد نظام طهران نفسه مستقبلاً إزاء مواجهات داخلية وخارجية، ولن يستفيد كثيراً من ادّعاءاته أن المظاهرات ذات دعم خارجي، ومؤامرة من أعداء الثورة ومثيري الشغب، وسواه. ولا تقدّم هذه العقلية حلولاً لمشكلات إقليم عربستان ولبقية القوميات.

(كاتب سوري)

شارع قرب نهر كارون في الأهواز 2021/3/15 (Getty)

شحّ المياه

الأهواز من أهم أقاليم إيران لناحية الثروات النفطية والمائية. وبالطبع، يتم إنتاج كمية كبيرة من الكهرباء عن طريق السدود التي بنتها الحكومية، وكان تأثيرها كارثياً على الأهالي، سيما عبر تحويل مياه الأنهار أو في أثناء فترة الفيضانات، حيث تنغمر الأراضي والقرى بالمياه. وبالتالي، صار الإقليم يعاني من شحّ المياه، ودمرت زراعته وحيواناته. ومن ناحية أخرى لا يتم توظيف سكان المنطقة في المعامل المقامة على أرضهم، والمتعلقة بالطاقة والتصدير. وفوق هذا وذاك، يتم بناء مستوطنات من قوميات أخرى.